

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

موقعه في عصره - قلمه يروي حياته

د. عبد الكريم اليافي

ليلة الجمعة ١٩ جمادى الأولى ٩١١ القاهرة
١٧ تشرين الأول ١٥٠٥

ليلة الأحد ١ رجب ٨٤٩ القاهرة
٣ تشرين الأول ١٤٤٥

عاش السيوطي في ظلال دولة المماليك الجراكسة . وقد امتد حكمهم من
٧٨٤هـ / ١٣٨٢م الى ٩٢٣هـ / ١٥١٧م عاصر منهم الملوك الآتية أسماؤهم :

الظاهر سيف الدين جقمق	حكم عام ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م
المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	» » ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م
الأشرف سيف الدين اينال	» » ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م
المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال	» » ٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م
الظاهر سيف الدين خُشْقَدَم	» » ٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م
الظاهر سيف الدين بلباي	» » ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م
الظاهر تمر بغا	» » ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م
الأشرف سيف الدين قايتباي	» » ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م
الناصر ناصر الدين محمد بن قايتباي	» » ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م
الظاهر قانصوه	» » ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م

الأشرف جان بلاط

» » ٩٠٥ هـ / ١٥٠٠ م

العادل سيف الدين طوماي باي

» » ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م

بن قانصوه

» » ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م

الأشرف قانصوه الغوري

ويتبدى من هذا العرض أن بعض الملوك كانت مدة ملكهم أقل من سنة .
ذلك أن نائب الملك والأمراء وقادة الجيش كانوا بالاتفاق مع الخليفة والقضاة
يخلعون الملك اذا لم تعجبهم سيرته ويولون آخر مكانه . أما الخليفة فكان رمزاً
دينياً ليس غير .

وسميت هذه الدولة بالمماليك الجراكسة للتغليب فان الملك الظاهر تمر بغا
كان رومياً (يونانياً) . هذا عدا الأمراء والقادة والجنود فانهم من عروق شتى
كالتركي والكردى والأرمنى والهندي والقبجاقي والسلافي وغيرهم . وانما
قيل لهم أيضاً المماليك البرجية أو البرجيون نسبة الى معسكرهم الذي كان في القلعة
على حين كانت دولة المماليك التي سبقتهم يقال لها ملوك الترك نسبة الى جنسهم
على التغليب أو المماليك البحرية أو البحريون لأن معسكرهم كان في جزيرة
الروضة على النيل .

عصر المماليك على وجه العموم بحرية وبرجية ذو مكانة بارزة في تاريخ
الاسلام . فقد وقفوا سداً منيعاً تجاه أمواج المغول والتتر المتتابعة الكثيفة
الزاحفة وازاء الحملات الصليبية المترادفة فتوارثوا نضال الملك العادل
نور الدين محمود زنكي وكفاح صلاح الدين الأيوبي وبقية الأيوبيين للصليبيين
واستطاعوا بشجاعتهم وفروسياتهم وإيمانهم دحر تلك الحملات ورد تلك الأمواج
وحماية البلاد العربية حيناً من الدهر من شرور الوحشية وغارات الهمجية الى
أن ذر قرن الاستعمارين القديم والحديث وكشرت في ظلهما نيوب الصهيونية في
العصر الحاضر .

وقد بقي عصر المماليك يحفه جو من الغموض في أذهان الكثيرين من الناشئة
أو يمر هؤلاء به لماماً دون التدقيق في خصائصه واستبانة مزاياه وتلمس عيوبه

في بعض الأحيان • ونحن هنا بمناسبة سيرة جلال الدين السيوطي العلمية لا بد من أن نتناول بعض معالم ذلك العصر •

لقد أدى استيلاء المغول على العراق وسقوط الخلافة العباسية في بغداد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م والمظالم التي وقعت الى اتجاه أنظار المسلمين نحو مصر الأيوبية ثم المملوكية ، وهاجر عدد كبير من العلماء والمفكرين والصناع أمام جعافل التتر وهجمات الصليبيين الى وادي الكنانة • كذلك أفضى تدهور أحوال الأندلس وصروف المغرب العسيرة من ناحية مقابلة الى انتجاع مصر التي غدت مقراً جديداً للخلافة العباسية ، وقد أحيها الملك الظاهر بيبرس ولو شكلاً بعد انتصاراته الباهرة كما غدت مركز قوة علمية واقتصادية وعسكرية نجحت في التآلق وفي حفظ التراث العربي الاسلامي وامداده بمعين ثر فياض •

وقد تناقل الناس رسوخ العلم في مصر وازدهاره فيها لعهد ابن خلدون أي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين على حين أقوت معاهد المعرفة والعلم في كثير من البلدان الاسلامية • يقول هذا المؤرخ العلامة في مقدمته تحت عنوان « فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » :

« أما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه ، وان كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والكوفة ، الا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك ، وانتقل العلم منها الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ، ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب • فلم تزل موفورة ، وعمرانها متصلاً وسند العلم بها قائماً • »

وكذلك تناقل الناس أحوال الرخاء المستفيض على مصر في القرنين أنفسهما كتب ابن خلدون قبل قدومه الى مصر في « أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة • » جاء في هذا الفصل قوله : « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما (لا) يقضى منه العجب • حتى ان كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون الى النقلة الى مصر لذلك ، لما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها •

ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة ايثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم ، أو أموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار . وليس كذلك . وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك ، فعظمت لذلك أحوالهم . »

ومن المعلوم أن ابن خلدون يعلق اتساع العمران على زيادة عدد السكان واتساع ضروب العمل ونحل المعاش من فلاحه وصناعة وتجارة . وقد ذكر ذلك في فصل « أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته » فقال :

« وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملة ما التأنق في الصنائع واستجادتها ، فكملت بجميع ممتوماتها ، وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله » . ثم يقول : « وقد تخرج (الصناعة) عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد ، كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الانسية ويتخيّل أشياء من العجائب بأيها قلب الأعيان (أي الحقائق الواقعة) وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمرانها بالمسلمين » .

وقد اجتذب صيت مصر والقاهرة في العلم والتقدم والازدهار مؤلف المقدمة نفسه فكتب حين دخلها يصف أحوالها في كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » بقلم الأديب المعجب : « فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الدرّ من البشر وإيوان الاسلام وكرسي الملك . تلوح القصور والأواوين في جوه وتزهر الخوانك والمدارس بأفائه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه . قد مثّل بشاطيء بحر النيل ، نهر الجنة ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبي اليهم الثمرات والخيرات ثبته ، ومررت في سكك المدينة تنفس بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبُعْد مداه في العمران واتساع الأحوال » .

هذا ولقد دخل ابن خلدون القاهرة عام ٧٨٤ هـ في زمن الملك برقوق أول الملوك الجراكسة . ولما خلف الملك الناصر فرج بن برقوق أباه استصحب ابن خلدون مع فريق من العلماء حين خرج لمحاربة تيمورلنك . واستطاع مؤلف المقدمة أن يفاوض الطاغية في أرباض دمشق ثم أن يخلص من السير في ركابه فرجع بعد لأي الى القاهرة .

نذكر ذلك قبل ولادة السيوطي ولكن الأحوال بقيت جيدة على وجه العموم في زمن الملوك الجراكسة الذين تداولوا الحكم بعد فرج .

ولئن بدأ الفساد والعنف يدبّان بعض الشيء في زمن دولة الجراكسة فقد وقفوا بحزم أمام تيمورلنك عام ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م ، وما ارتكبه الطاغية من فظائع ، وبقوا أقوياء أولي بأس . قاموا بحملات على آسيا الصغرى وغزوا قبرس في عام ٨٢٧ هـ / ١٤٢٦ م بأسطول بحري صنعت سفنه في ميناء بولاق وكانت هذه الجزيرة وكراً للقراصنة الأوربيين الذين يهددون الملاحة المصرية وأسروا ملكها وأحضره ظافرين الى قلعة القاهرة ومعه تاج قبرس وأعلامها المخدولة « وزينت المدينة سبعة أيام ودخل عسكر الفرنج وهم في زناجير وملكهم راكب وعليه آلة الحرب . . . وفي هذه السنة كملت عمارة السلطان (الملك الأشرف برسباي الدقماقي) وهي المدرسة الأشرفية التي عند سوق الوراقين . فلما وقعت هذه النصرة وأسر ملك الفرنج في تلك السنة رسم السلطان بأن تعلق خوذة ملك الفرنج على باب هذه المدرسة لتكون تذكراً له » . وبقيت معلقة الى عهد المؤرخ ابن إياس الذي اقتبسنا هذه الفقرة من كتابه « بدائع الزهور » . وقد افتدى قنصل البندقية والتجار الأوربيون ملك قبرس وغدا تابعاً لملك مصر . ثم جاء ابن ملك لقبرس سنة ٨٦٣ هـ الى القاهرة يطلب الى سلطانها اذ ذاك سيف الدين اينال « تجريدة » أي نجدة عسكرية فبعث بها معه الى الجزيرة ولكنها لم تقم تمام القيام بما عهد اليها فيه . وبقيت قبرس تدفع جزية حتى نهاية دولة الجراكسة .

ومن أهم ملوك الجراكسة الأشرف قايتباي وهو أيضاً من أطولهم مدة حكم . حكم البلاد نحو تسع وعشرين سنة ونصف السنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م - ٩٠١ هـ /

١٤٩٦ م • ومات وله من العمر ست وثمانون سنة • قضى جلال الدين شطراً كبيراً من حياته في عهده (من سن الثالثة والعشرين الى الثانية والخمسين) • كان مملوكاً جركسياً تنقل من سيد الى آخر حتى أعتقه الملك الظاهر جقمق وارتقى في آخر الأمر الى أن أصبح القائد الأعلى للجيش في زمن سلفه تمر بغا اليوناني • كان يتصف بالشجاعة والعدل والحزم والنشاط • وقعت في زمنه عدة حروب بينه وبين العثمانيين كان جنوده تنتصر عليهم وتسوق أسراهم • وقد وصلت جنوده عام ٨٩٥ في زحفها الى بلاد العثمانيين بأسيا الصغرى واستولت على قيسارية ثم اصطلاح الطرفان وتبادلا الأسرى • وقد أدب العربان الثائرين بنواحي البلاد كما بطش عدة مرات بجنود الفرنج المغيرين على الشواطىء • كان يتفقد المدن الكبيرة كالاسكندرية ودمياط والفيوم • وطاف في بلاد الشام وحلب نحو أربعة أشهر وزار مكة وبيت المقدس •

وأعماله أكثر ما كانت في العمارة سواء كان ذلك في مصر أو الشام أو بلاد العرب • منها تجديد عمارة المسجد النبوي الشريف لما احترق وانشاء قبة عظيمة على القبر الشريف وانشاء مدرسة مطلّة على الحرم النبوي وبنى مدرسة بمكة المشرفة عند باب السلام وعدة ربوع وأماكن بمكة أيضاً وانشأ مدرسة ببيت المقدس ، ومدرسة وبيوتاً ودكاكين بدمشق ومدرسة بغزة ومدرسة بثغر دمياط ومدرسة بثغر الاسكندرية وبرجاً عظيماً مكان منارها القديم وعدداً من المساجد أشهرها اثنان في القاهرة كما بنى « وكالات » تعتبر من أجمل نماذج الزخرفة العربية في البناء الاسلامي وعمل كثيراً في إصلاح آثار أسلافه المتهدمة • ومن أجل ذلك كله كان يحتاج الى المال ففرض بعض الأتاوات والغرامات والضرائب وابتزّ أموال الأوقاف للانفاق على حروبه وعماراته واصلاحاته •

ومن الملوك الجراكسة الذين طال أمد حكمهم نسبياً وبذلوا جهودهم في إصلاح الأحوال المتداعية في أواخر عهد الدولة الأشرف قانصوه الغوري • خلف سلفه العادل سيف الدين طومان باي الذي دامت سلطنته نحو ثلاثة أشهر فقط إذ خرج عليه عدد من الأمراء والجند فهرب واختفى • ثم لما ظهر قتل • وقد قبل الغوري التولية بعد إباء وتردد وكانت سنه تناهز الستين فعمد الى تسوية الأمور الداخلية وتسكين الفتن وإطفائها ولكن أهم الأخطار كانت خارجية •

لقد كانت تجارة مصر مزدهرة ورائجة بين الشرق والغرب ، وبين الهند وأوربة ، وهال الفرنج ولا سيما البرتغاليون ما كانت تجنيه مصر وما كان عملاؤها البنادقة يجنونه من الضرائب والمكوس والأجور المفروضة على المتاجر بين الشرق والهند وأوربة لمرورها بأراضي مصر . كانت الطريق البحرية في الخليج العربي أقصر منها في البحر الأحمر ولكن طريق القوافل من البصرة الى حلب أخطر وأقل أمناً منها خلال مصر . ولما استطاع البرتغاليون أن يكشفوا طريق رأس الرجاء الصالح وجنوب أفريقية عام ١٤٩٨ م تحول بعض المتاجر اليها فنقصت واردات مصر تبعاً لذلك . ثم أخذ البرتغاليون يعبثون بالسفن المصرية والشواطئ المصرية كما كانوا يكيدون بعض أمراء العرب وأمراء الهند ممن تربطهم بمصر روابط اقتصادية . وخشي السلطان الغوري استفحال هذا الخطر الخارجي فصنع عمارات بحرية ساقها في البحر الأحمر بقيادة الأمير حسين الكردي لتأديب البرتغاليين وسحقهم في بحر العرب وشواطئ الهند .

ولكن خطرين آخرين لاحا يهددان الممالك أولهما بروز الدولة الصفوية في فارس بزعمها الشاه اسماعيل كانت تغير على حلب وأطراف الشام و ثانيهما طموح العثمانيين الى توسعة مملكتهم . وقد ابتلى الشاه اسماعيل بحروب نشبت بينه وبين ملك التتر أزبك خان وانتهت بقتل أزبك ثم حارب السلطان سليم العثماني الشاه اسماعيل وكسره شركسرة . ولما بات الغزو العثماني قاب قوسين أو أدنى كان الممالك أولي قوة عسكرية لا بأس بها . قام الغوري بأعمال جليلة من شق الطرق وحفر الترع وتحصين السواحل كما وسع قلعة القاهرة وحسّن طريق الحجاج الى مكة وبنى مدرسة ومسجداً وبنى مئذنة للجامع الأزهر وأنشأ طواحين المياه في مصر العتيقة وأصلح قناة المياه التي تصل الى القلعة . وكان أديباً وشاعراً ترك ديواناً من الشعر ، وكان يكرم الشعراء والموسيقيين . ولما تقدم جيش العثمانيين ودخل سورية جهز الغوري حملة قوية زودها بأنواع الأسلحة . وتلاقى الفريقان في مرج دابق قرب مدينة حلب في رجب عام ٩٢٢ هـ - آب ١٥١٦ م كان النصر أول الأمر حليف المصريين ولكن ما عتم أن انسحبت ميسرة الجيش التي تزعمها خاير بك نائب حلب خيانة منه وثبت السلطان وهو يرى فرار جنده وهو في السادسة والسبعين من عمره فوقع الى

الأرض ووطئته سنايك الخيل • لقد حاول طومان باي آخر الملوك الجراكسة أن يحول دون دخول الغزاة الى القاهرة ولكنه دحر وأسلمه عربان البحيرة الى السلطان سليم فشنق على باب زويلة في المحرم ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وانتهت دولة الجراكسة •

كان المماليك من سلاطين وأمراء وجنود على اختلاف مراتبهم وتفاوت أصولهم وتباين أعراقهم مسلمين • وكانوا يتلقون تربية عسكرية صارمة وتربية علمية اسلامية دقيقة • وقد اشتهر بعض ملوكهم وأمراءهم وجنودهم بالتقوى والورع وحب العلم ومجالسة العلماء واحترامهم • كانوا غرباء عن البلاد ولكنهم كانوا يشعرون بالمسؤولية الضخمة تجاه الوطن الذي تلقاهم ونشأهم وعلمهم وازاء الدين الذي حررهم وأدبهم واعتنقته قلوبهم • فكانوا يدافعون عن الدين والبلاد بحمية كبيرة وحماسة لا نظير لها ويبذلون في سبيل ذلك أرواحهم وما وصل الى أيديهم من مال بطريق التنظيمات الادارية والاقتصادية • وقد خلفت عهود المماليك من مساجد وزوايا وخوانق ومدارس وأمثالها من منشآت دينية بنوها وتعهدها ما يفوق سائر العهود • واشتد النشاط بمختلف وجوهه العلمي والاقتصادي والصناعي • وتجاوز احترامهم للعلماء الى تقريبيهم وتقديمهم في شؤون كثيرة والى استشارتهم في الحين بعد الحين في شؤون الدولة والاستماع الى شكاياتهم واجابة طلباتهم ، وعلى رأس هؤلاء العلماء القضاة على المذاهب الأربعة • فهم مقدمون في الرأي والفتيا • وكان هؤلاء القضاة والعلماء أهلا للتكريم والاحترام • فقد ضربوا أحسن الأمثال في الزهد والورع وطيب السيرة والثبات على الرأي اذا شعروا أنه موافق للشرعية كما كانوا قدوة لأبناء الشعب وملاذاً لهم اذا عصب بهم أمر أو حل بهم حيف • واذا كان سلاطين المماليك قد أهملوا الشعب بوجه عام واستأثروا بالسلطة فان أولئك العلماء الذين كانوا من أبناء الشعب قد شاركوا بهذا الاعتبار الى حد ما في الحكم والمشورة والتوجيه والفتوى القاطعة •

وكان العلماء في تلك العهود المضطربة شعروا بما يهدد التراث الاسلامي من تفرق وضياع وطمس واحراق فهبوا لحياء حركة علمية جليلة بالتعليم ولا سيما التأليف في شتى الميادين • والعالم في تلك العهود هو المتفقه في الدين

واللغة العربية والتراث الاسلامي خاصة . وكان يطلق على الطبيب لفظ الحكيم أو الرئيس وعلى طبيب العيون لفظ الكحال وعلى المهندس أحياناً لفظ الشاد .

واحترام الممالك واهتمامهم باللغة العربية وهي ليست لغتهم الأصلية ناشئان عن الحاجة الى لغة مبينة تجمع شتاتهم وتتجاوز مختلف لهجاتهم . وكانت اللغتان التركية والجركسية قاصرتين عن أداء ما يقتضيه ذلك الملك الواسع من حسن ادارة وضبط ومراسلات رسمية وقضاء وتشريع . وكانت اللغة العربية لغة أهل العلم بفروعه وميادينه كلها في العالم الاسلامي أجمع .

وقد نشأ في تلك العهود من العلماء كواكب متألفة تجلو دياجير الجهل وتضيء سواد الفتن، وألفوا من الكتب واختصروا من المطولات وجمعوا من البحوث ما هو ثروة غنية وتالدة للتراث العربي بأنواعه الكثيرة الواسعة .

بل ان الممالك أنفسهم قد مثلهم الشعب العربي المصري فذايوا فيه ، وخرج منهم عدا الملوك والأمراء علماء مشهورون ومؤلفون ثقات . من أبرزهم في عصر السيوطي المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تفرج بردي ٨١٣/١٤١٠ - ١٤٦٩/٨٧٤ . كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق . ومن أشهر كتبه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» . ومنهم تلميذ السيوطي أبو البركات محمد بن أحمد ابن اياس الحنفي ٨٥٢/١٤٤٨ - ٩٣٠/١٥٢٤ . أبوه أحمد كان متصلاً بالأمراء ورجال الدولة . وجده اياس الفخري الظاهري من مماليك الظاهر برقوق ورسم «دواداراً ثانياً»^(١) في دولة الناصر فرج بن برقوق . ألف أبو البركات كتابه المشهور بتاريخ ابن اياس والمسمى «بدائع الزهور في وقائع الدهور» أحد المراجع المهمة التي اعتمدناها في بحثنا هذا .

ومن قبله اشتهر من بين الممالك شهاب الدين أبو العباس أحمد بن رجب بن طنبغا أو طينغا الجركسي ٧٦٧ هـ/١٣٦٦ م - ٨٥٠ هـ/١٤٤٧ م المشهور بابن المجدي نسبة الى جده المجدي أحمد مقدمي^(٢) الألو في جيش الممالك .

١ - الدوادار : من يبلغ رسائل السلطان ويقدم اليه المظالم والأخبار وينظم المقابلات السلطانية ويرفع البريد الى السلطان ، ويطلب توقيعه على المناشير والرسائل . ومعناه صاحب الدواة .

٢ - المقدم : المشرف على عدد من الممالك والمسؤول عنهم .

وهو أعظم العلماء لعصره في الفرائض والحساب والهندسة وعلم الوقت. وله مصنفات كثيرة في هذه الشؤون ذكرها السخاوي في كتابه « الضوء اللامع » . بل ان الجلال السيوطي نفسه كانت أمه أمة تركية ، ذكر ذلك السخاوي لدى ترجمة الجلال في كتابه المذكور .

لقد زخر عصر الماليك بالعلماء ومن المناسب أن نذكر أسماء بعضهم ممن لا نزال نستند الى كتبهم ونعتمدها أو ممن تطايرت شهرته في فن من الفنون أو أسلوب من الأساليب . نطوي صفحاً عن ذكر العلماء الكبار في العصر الأيوبي وفي عصر الماليك البحرية ونشير الى طائفة من علماء القرنين التاسع والعاشر الهجريين ومنمن نشأ وعاش في مصر أو زارها في إبانهما .

من هؤلاء المؤرخ ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ / ٨٠٨ صاحب المقدمة والتاريخ المشهورين .

وكمال الدين محمد بن موسى الدميري ٧٤٢ / ١٣٤١ - ٨٠٨ / ١٤٠٥ من أهل القاهرة ومن فقهاء الشافعية . كانت له حلقة خاصة في الأزهر . من كتبه المشهورة « حياة الحيوان » وقد لخصه السيوطي في كتابه « ديوان الحيوان » .

وعلي بن عبد الله الغزولي البهائي الدمشقي توفي عام ٨١٥ / ١٤١٢ عاش وتوفي في دمشق وزار القاهرة مراراً . له كتاب « مطالع البدور في منازل السرور » .

وابن الشحنة أبو الوليد محمد بن محمد ٧٤٩ / ١٣٤٨ - ٨١٥ / ١٤١٢ من علماء حلب ولي قضاءها كما ولي القضاء بدمشق والقاهرة . وهو فقيه ومؤرخ وأديب له «روض المناظر في علم الأوائل والأواخر» وابنه أبو الفضل محمد بن محمد ٨٠٤ / ١٤٠٢ - ٨٩٠ / ١٤٨٥ انتقل الى مصر وولي كتابة السر فيها وأضيف اليه قضاء الحنفية وكان من الرؤساء البارزين في أيام الملك الأشرف قايتباي .

ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي ٧٢٩ / ١٣٢٩ - ٨١٧ / ١٤١٥ من أئمة اللغة والأدب ولد بكارزين بفارس . جال في مصر والشام وبلاد الروم والهند ورحل الى زبيد وأقام فيها وهو صاحب « القاموس المحيط » .

وأحمد بن علي الفزاري القلقشندي ثم القاهري ٧٥٦/١٣٥٥ - ٨٢١/١٤١٨ وهو مؤرخ وأديب وبخاتة وهو مؤلف «صبح الأعشى في صناعة الانشا».

واللغوي محمد بن أبي بكر المخزومي المعروف بابن الدماميني ٧٦٣/١٣٦٢ - ٨٢٧/١٤٢٤ استوطن القاهرة وهو من تلاميذ ابن خلدون تصدر لاقراء العربية بالأزهر .

وشمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الشهير بابن الجزري ٧٥١/١٣٥٠ - ٨٣٣/١٤٢٩ شيخ الاقراء في زمانه . ولد ونشأ في دمشق . ولكنه رحل مراراً الى مصر . أخذه تيمور الى ما وراء النهر ولما مات تيمور رحل الى شيراز وتولى قضاءها وتوفي فيها . وهو صاحب كتاب «النشر في القراءات العشر» و «غايات النهايات في أسماء رجال القراءات» . ونسبته الى جزيرة ابن عمر .

وابن حجة الحموي أبو بكر بن علي ٧٦٧/١٣٦٦ - ٨٣٧/١٤٣٣ إمام الأدب في عصره له خزانة الأدب في شرح بديعية له . وهو من أهل حماة زار القاهرة والتقى علماءها واتصل بملوكها .

وتقي الدين المقرئ أحمد بن علي ٧٦٦/١٣٦٥ - ٨٤٥/١٤٤٢ مؤرخ الديار المصرية . ونسبته الى حارة المقارزة ببعلبك تحول أبوه الى القاهرة حيث ولي بعض المناصب في القضاء . ولد ونشأ ومات في القاهرة . أربت مؤلفاته على مئتي مجلد . منها «المواظظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» و «السلوك في معرفة دول الملوك» .

والابشيهي محمد بن أحمد ٧٩٠/١٣٨٨ - ٨٥٢/١٤٤٨ صاحب «المستطرف في كل فن مستظرف» .

وتقي الدين ابن قاضي شهبة أبو بكر بن أحمد ٧٧٩/١٣٧٧ - ٨٥١/١٤٤١ فقيه الشام في عصره ومؤرخها وعالمها وابنه اشتهر أيضاً بابن قاضي شهبة ٧٩٨/١٣٩٥ - ٨٧٤/١٤٧٠ فقيه الشام في عصره غير مدافع .

وشهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني المعروف بابن حَجَر ٧٧٣/١٣٧٢ - ٨٥٢/١٤٤٩ أصله من عسقلان بفلسطين ومولده ووفاته بالقاهرة . له «الدرر

الكامنة في أعيان المئة الثامنة» و «لسان الميزان» و «تقريب التهذيب» و «تهذيب التهذيب» ، من أشهر علماء عصره وأجل ثقاتهم وأكثرهم حفظاً ورواية . وقد اختصر السيوطي الدرر الكامنة في كتابه «الملتقط من الدرر الكامنة» .

وأحمد بن محمد المعروف بابن عريشاه ١٣٨٩/٧٩١ - ١٤٥٠/٨٥٤ ولد ونشأ في دمشق . برع في اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية . ذهب الى سمرقند ثم رحل في أواخر حياته الى مصر فأقام في الخانقاه الصالحية الى أن توفي . له «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» و «عجائب المقدور في أخبار تيمور» .

وبدر الدين محمود بن أحمد العيني ١٣٦١/٧٦٢ - ١٤٥١/٨٥٥ أصله من حلب ومولده في عينتاب واليه نسبته . أقام مدة في حلب ومصر ودمشق والقدس وولي في مصر الحسبة وقضاء الحنفية ونظر السجون وغدا من أخصاء الملك المؤيد سيف الدين شيخ . ولما ولي الأشرف برسباي قريه وقدمه ولازمه وهو من كبار المحدثين والمؤرخين .

وجمال الدين محمد بن محمد الغزال الدمشقي الشهير بسبط المارديني ٨٢٦/١٤٢٣ - ١٤٨٥/٨٩٠ فلكي كان موقتاً بالجامع الأزهر بمصر وتوفي فيها .

ومحمد بن عبد الرحمن السخاوي ١٤٢٧/٨٣١ - ١٤٩٧/٩٠٢ المؤرخ العلامة ألّف نحو مئتي كتاب أشهرها «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» ترجم فيه لمعاصره السيوطي ولنفسه ويقع الكتاب في اثني عشر جزءاً وهو مرجع مهم لرجال ذلك العصر .

ولا بد من أن يمنّ الزمان في العصور المضطربة من كاتب وشاعر فكه . ف جاء أبو الحسن علي بن سولون الجركسي القاهري ثم الدمشقي ١٤٠٧/٨١٠ - ١٤٦٢/٨٦٨ . ولد وتعلم بالقاهرة . سلك في أكثر شعره الهزل والفكاهة . له كتب منها «نزهة النفوس ومضحك العبوس» تكشف فكاهاته عن ابتسامات ناعمة .

وينبغي أن ننوه بأبي بكر بن عبد الله العيدروس ١٤٤٧/٨٥١ - ٩١٤/١٥٠٩ . أصله من حضرموت . ساح ورأى البنّ في اليمن واقتات به وأعجبه فاتخذة قوتاً وشراباً . فهو مبتكر القهوة التي انتشرت في اليمن والحجاز والشام

ومصر ثم في العالم كله . ومن المناسب أن يحتفل متذوقو القهوة ومحبوها عالمياً بمرور خمسمائة سنة هجرية على ذكرى وفاته في العام الهجري المقبل .

ولا ننسَ شيخ الإسلام في ذلك العصر والقاضي العف النزيه زين الدين أبا يحيى زكريا بن محمد بن محمد الأنصاري المصري ١٤٢٣/٨٢٦ - ١٥٢٠/٩٢٦ بورك في عمره فعاش عمراً حافلاً بالحفظ والعلم والتقوى . عاصر جملة من سلاطين الدولة الجركسية حتى شهد مصرع دولتهم على أيدي العثمانيين . وكان السلطان خشقدم عرض عليه منصب القضاء الأكبر فأبى . ولما ولي الأشرف قايتباي قلّده هذا المنصب فقبله بعد تمنّع وتأبّ وإلحاح . فمارسه بنزاهة وكفاية ودراية وتقوى ولبث في هذا المنصب مدة طويلة تبلغ زهاء عشرين سنة .

وقد وقعت في زمنه فتنة ابن الفارض عام ٨٧٥ هـ ، اذ انقسم العلماء فيها فريقين : فريق كفره بما فرط في بعض شعره من ألفاظ توهم الحلول أو نحوه وفريق يؤول كلامه ويدافع عنه ، وقد استشرت الفتنة وتطايير شررها حتى كتبت فتوى فيها ودفعت الى الشيخ الأنصاري فأفتى فيها بإيمان ابن الفارض واعتذر له بعجز اللغة عن بلوغ معانيه فسكتت الفتنة وسكن ثائرها .

هذا وقد اشترك السيوطي في فتنة ابن الفارض وكان من المدافعين عنه ، وألّف في ذلك كتاباً سماه « قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض » .

ولم يكن ما أوردناه من أسماء العلماء في ذلك العصر الحافل إلا قليلاً من كثير وبرضاً من عِدٍّ ، فلقد كان هنالك تسابق نحو مناهل العلم اذ هو تعبّد لله وتقرّب من جلاله ونجاة في الدارين . وكتب الطبقات مشحونة بأسماء العلماء في كل ميدان . وكل ميسّر لما خلق له .

كان العلماء في دولة المماليك القلب الخافق والعقل المدرك وأهل المشورة والحلقة الفاصلة والواصلة بين الملوك والأمراء والشعب الطيب الدائب . وكما ألّف العلماء الكتب للناشئة والمتعلمين في مختلف ميادين المعرفة والعلم اذ ذاك ، كذلك نهض أدباء شعبيون بين القرنين السادس والثامن للهجرة أي قبيل دولة المماليك فكتبوا لجماهير الشعب قصصاً وحكايات مطولة صوروا فيها أمانى الشعب ونزعاته ومطامح أخيلته كما رسموا صوراً من حياته اليومية رمزية

أو واقعية . وقد أغفل هؤلاء المؤلفون أسماءهم . وكل منهم قد أخذ أعمال سلفه وزاد عليها في الرواية والنقل والكتابة . وكان للحروب الصليبية والغارات التتيرية أثر ظاهر في انشاء تلك الحكايات والقصص اذ أرسخت في القلوب الايمان وألهبت الحماسة الدينية ازاء تلك الغارات والحروب فحملت القصص والقوَال على رواية تلك القصص وحكاية تلك الأقوال حثاً على الصبر والبطولة والشجاعة والاستشهاد كما في قصص سيف ذي يزن والأميرة ذات الهمة وفيروز شاه ، وسيرة الملك الظاهر . ووقع حكم المماليك بين القرن الثامن والعاشر للهجرة . وقد اطمأن الناس بعض الشيء بعد دحر الصليبيين والتتر وازدهار الصناعة والتجارة في مصر فتغير اتجاه القصص والحكايات الى تصوير أحوال التجار وجمع الثروة ورسم أنواع الحيل والشعوذة والسحر وما الى ذلك . وللاقترب من أذواق الجماهير وأفهامهم كان المؤلفون والقصاص يعتمدون اللغة الدارجة غالباً والمبتذلة أحياناً وهذا ما جعل العلماء والمثقفين ينظرون الى تلك القصص نظرة ازدراء واستخفاف لأنها كانت خلواً من القيمة الأدبية التي كان يحرص عليها رجال الأدب واللغة الحقيقيون . ولكن الاهتمام الحالي بقضايا الشعب وتصوراته وميوله وما يعلم به أصبح متعارفاً ومتداولاً في العصر الحاضر . ومن المعروف أن كتاب « ألف ليلة وليلة » قديم . وهو يتألف من قصص تجمعت بتوالي الأجيال مما ترجموه أو وضعوه . وله أصل نُقل أول الأمر عن الفارسية قبل القرن الرابع الهجري ثم تداوله الناس ووسعوه وبدلوا فيه حتى وصل اليها بنسخه المتعارفة . وأغلب الظن أن جمعه والاضافات الأخيرة على الصورة التي وصلت اليها قد تمت في القرن العاشر للهجرة أي في زمن دولة المماليك الجراكسة ففيه اشارة الى شرب القهوة وفيه اشارة الى بعض الحكام المتأخرين من المماليك كما فيه وصف لبعض خانات مصر التي كان ينزلها التجار في القرن التاسع وبعض معالمها كخان مسرور وباب زويله وغيرها من الأماكن وفيه أيضاً تصوير لمعاملات التجار وحياتهم وحياة أفراد الشعب وعرض لمباهج القاهرة اذ ذاك ، حتى ان أسلوب الكتابة في الأجزاء المضافة تشبه الكتابة العربية في العصور المتأخرة .

يتحدث التاجر البغدادي في قصة الأحذب من كتاب ألف ليلة وليلة حين دخل مصر عن الصروف التي مربها فيقول :

« فدخلت مصر وأنزلت القماش في خان مسرور وفككت أحمالي وأدخلتها وأعطيت الخادم دراهم ليشترى لنا بهاشيئاً نأكله ونمت قليلاً . فلما قمت ذهبت الى بين القصرين ثم رجعت وبت ليلتي . فلما أصبحت فتحت رزمة من القماش وقلت في نفسي : أقوم لأشق بعض الأسواق وأنظر الحال ، فأخذت بعض القماش وحملت له بعض غلماني وسرت حتى وصلت قيسرية جرجس فاستقبلني السماسرة - وكانوا قد علموا بمجيئي - فأخذوا مني القماش ونادوا عليه فلم يبلغ ثمنه رأس ماله . فقال لي شيخ الدالين : ياسيدي ! أنا أعرف لك شيئاً تستفيد به ، وهو أن تعمل مثل ما يعمل التجار فتبيع متجرك الى مدة معلومة بكاتب وشاهد وصيرفي ، وتأخذ ما يتحصل من ذلك في كل يوم خميس واثنين ، فتكسب الدراهم كل درهم اثنين ، وزيادة على ذلك تتفرج على مصر ونيلها . فقلت : هذا رأي سديد . فأخذت معي الدالين وذهبت الى الخان فأخذوا القماش الى القيسرية فبعته للتجار وكتبت عليهم وثيقة الى الصيرفي وأخذت عليه وثيقة بذلك ورجعت الى الخان وأقمت أياماً كل يوم أفطر على قدح من الشراب وأحضر اللحم الضاني والحلويات حتى دخل الشهر الذي استحقت فيه الجباية فبقيت كل خميس واثنين أقعد على دكاكين التجار ويمضي الصيرفي والكاتب فيجئان بالدراهم من التجار ويأتیان بها الى أن دخلت الحمام يوماً من الأيام وخرجت الى الخان ودخلت موضعي وأفطرت على قدح من الشراب ثم نمت وانتبهت فأكلت دجاجة وتعطرت وذهبت الى دكان تاجر يقال له بدرالدين البستاني . فلما رأيته رحب بي وتحادث معي ساعة في دكانه . فبينما نحن كذلك اذا بامرأة جاءت وقعدت بجانبها وعليها عصابة مائلة وتفوح منها روائح الطيب فسلبت عقلي بحسنها وجمالها . . . »

كذلك نقرأ في ليلة ٨٢٦ من ذلك الكتاب وصفاً لأحد بساتين القاهرة « فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وهو مشيد الأركان ، رفيع البنيان ، له باب مقنطر كأنه ايوان وباب سماوي يشبه أبواب الجنان وبوابه اسمه رضوان وفوقه مئة مكعب عنب من سائر الألوان ، الأحمر كأنه مرجان ، والأسود كأنه أنوف السودان ، والأبيض كأنه بيض الحمام ، وفيه الخوخ والرمان والكمثرى والبرقوق والتفاح كل الأنواع مختلفة الألوان صنوان وغير صنوان . . » ونجد في الليالي التالية وصفاً لأنواع الفاكهة والأشجار فيه ولصنوف الطيور وللواوين

فيه وما في هذه اللواوين(*) من أثاث بديع ولحفلات والولائم ومجالس اللهو التي تنعقد في أبهائها وزواياها وأجنحتها . ولا شك أن الوصف هو ما كان يشاهده أبناء الشعب ويتصورونه أو يتخيلونه بالاستناد الى ما يرونه والى ما يزاولونه من أمور ومرافق .

يدل وصف البستان على التقدم الكبير الذي كانت عليه الفلاحة في وادي النيل . ولا غرو في ذلك فان خصب تربة الوادي شهير في مخلف الأزمنة على الرغم من شح النيل في بعض السنين وحصول المجاعات ، وعلى الرغم من أحوال الفلاحين السيئة في خلال عهود المماليك .

ثم ان ما كان يجري من معاملات تجارية كما رأينا في خان مسرور وهو أحد الخانات ينمّ على ازدهار التجارة بين البلاد العربية بالاضافة الى ما سبق ذكره في عهد الأشرف قايتباي وعهد الأشرف قانصوه الغوري من مكانة التجارة وحركتها المشتدة بين الشرق والغرب قبل الكشف عن طريق جنوب افريقية .

ومن المناسب أن نعود هنا ونؤكد هذا الازدهار الذي كان سبباً لتجمع الثروات في عهد المماليك . فلقد تحكم السلاطين في أثمان أصناف معينة واحتكروا التجارة بها مثل السكر والفلفل والأخشاب والحرير وجوز الطيب والقرنفل وبعض المصنوعات المعدنية . كانت حمولة الفلفل التي يبلغ ثمنها في القاهرة خمسين ديناراً تباع أحياناً في الاسكندرية للتجار الأوربيين بنحو مئة وثلاثين ديناراً وفقاً لقوانين الحكومة . كان طريق التجارة اذن مصدراً هاماً لثروة البلاد . وقد فرضت الدولة رسوماً نقدية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج العربي أو البحر الأحمر لنقلها الى البصرة أو السويس ثم الى ميناء الاسكندرونة أو الاسكندرية من أجل شحنها الى البندقية . كان المماليك محتكرين أكثر تجارة الهند جميعها مع بلاد الشرق وكانت البندقية عميلتهم الكبرى في أوربة . هذا وكان الطريق في الخليج العربي أقصر منه في البحر الأحمر، غير أن طريق القوافل من البصرة الى حلب كان أخطر من الرحلة القصيرة في ربوع مصر ، كما أشرنا آنفاً الى ذلك .

ولم تكن الدولة وحدها المستفيدة من هذه التجارة . كان التاجر القاهري يستورد بضائع من الهند وجزر البهار أو يشتريها من التجار الهنود في مواني

(*) الليوان تعريف الايوان .

البحر الأحمر ويكسب هو أيضاً مبالغ طائلة . وكان كثير من التجار المصريين في
بحبوحة واسعة من العيش ويسار بليغ هانىء . يومئذ الى ذلك بعض الحكايات
في ألف ليلة وليلة .

ومن الطبيعي أن تزدهر الصناعات والفنون المختلفة الى جانب ازدهار
التجارة وتقدمها . ولبيان ذلك نعتمد كتاب « فنون الاسلام » للدكتور زكي
محمد حسن فهو المختص بهذا الشأن . وما نورد هنا خلاصات لبعض ما جاء في هذا
الكتاب . ولا تعدم هذه من فائدة .

ان عصر دولتي المماليك بين عامي ٦٤٨ - ٩٢٣ (١٢٥٠ - ١٥٨٠) هو
العصر الذهبي في تاريخ العمارة الاسلامية في مصر . كان الاقبال عظيماً على تشييد
العمائر من جوامع ومدارس وضرائح وحمامات ووكالات وسُبل (*) . كما ظهر
التنوع والاتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من واجهات ومنازل وقباب
وزخارف جصية ورخامية . (ج ٣ ص ٧١) .

ولم يكن أمراء المماليك ليهدأ لهم بال أو تطمئن بهم حال ما لم يبنوا مسجداً
أو مدرسة أو ضريحاً ينهض دليلاً على تقواهم . فتنافسوا في بناء المساجد
والخوانق والزوايا والمدارس والمارستانات .

وكانت المساجد تحتوي على واجهات جميلة ونقوش غائرة وأبواب جانبية
وأفاريز مزخرفة . وكذلك تطورت المآذن التي أصبحت أكثر رونقاً وجمالاً كما
غدت تبني بحجارة جميلة الشكل وزخارف دقيقة ، وازداد الاهتمام ببناء القباب
الكبيرة بعد أن كان أكثرها صغيراً . والمماليك هم سادة بناء القباب وبعض
قبابهم مغطى بزخارف هندسية ونقوش عربية ورسوم بديعة . واهتموا كل
الاهتمام بصناعة المناير وزخرفتها ونقوشها .

كذلك ذاع بناء المدافن الكبيرة في عصر المماليك . وهي تتشابه في تصميمها
وتشبه في كثير من العناصر المعمارية ما عرفه القوم من الضرائح في بلاد
تركستان . ولكن ارتقى تصميمها في مصر وتطور بناؤها . وفي القاهرة
مجموعة جيدة من هذه الضرائح تعرف خطأ باسم قبور الخلفاء . والحق أنها
ضرائح المماليك . ولعل أبدها مدفن خانقاه برقوق ومدفن قايتباي ومدفن

(*) السيل بناء صغير فيه مجرى ماء نقي للشرب والوضوء والعامة تجمع السيل على أسبلة والضريح على اضرحة .

بارسباي (ص ٧٧) • وفي كتاب فنون الاسلام وصف بديع لمدفن قايتباي يجدر الرجوع اليه • كذلك اهتم المماليك الجراكسة بعمارة القصور • ومن أشهرها قصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن وهو يرجع الى القرن الثامن • وعمارة الوكالات • ومن أشهرها وكالة قايتباي بباب النصر •

وازدهرت في عصر المماليك صناعة الشبكيات من الخشب المخروط • وهي التي تعرف باسم مشربية ولعلها تحريف مشرفة بمعنى غرفة عالية أو لعلها مشربة بمعنى المكان الذي يشرب فيه لأن المشربيات كانت تتخذ في واجهات البيوت لتلطيف النور وادخال النسيم العليل وتمكين أهل الدار من رؤية من بالخارج دون أن يكون العكس ممكناً • هذه المشربيات يصنع فيها خارجات صغيرة مستديرة أو مثمنة تتركب خارج المشربية وتوضع فيها القلل لتبريدها (ص ٤٧٠) •

وازدهرت صناعة الرخام والجص في مصر في هذا العصر • وكانت الزخارف المحفورة في الجص والرخام في العمائر المختلفة تشهد بابداع الفنانين في الرسوم النباتية الدقيقة فضلا عن الرسوم الهندسية المختلفة •

كذلك تطور فن الفسيفساء في الحضارة العربية الاسلامية • لنرجع قروناً في تاريخ هذه الحضارة نجد أن أبداع ما وصل إلينا من الفسيفساء فسيفساء قبة الصخرة في القدس الشريف وفسيفساء الجامع الأموي في دمشق • ولا نريد هنا بيان تطور هذا الفن الدقيق ولكننا نريد أن نشير الى أن نوعاً آخر من هذا الفن ازدهر في عصر المماليك وهو الفسيفساء المصنوعة من المكعبات الصغيرة من الرخام. وكان أكثر استعماله في المحاريب والوزرات بالمساجد ، كما تصنع منه الفسقيات والأحواض فضلا عن استعماله في زخرفة الأرض وما الى ذلك • من أشهرها حوض يرجع الى العصر المملوكي تسلل الى متحف فكتوريا وألبرت في لندن (ص ٦٥٤) •

وقد ازدهر فن الحفر على الخشب في مصر والشام • ولا بد حين نذكر هذا الفن من أن نرجع قليلاً في الزمان الى العصر الأيوبي وننوه بالتحفة الفنية التي أمر الأمير نور الدين محمود بن زنكي بصنعها سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ - ١١٦٩) وهي منبر الجامع الأقصى وقد نقله بعد وفاته صلاح الدين الى بيت المقدس •

وعلى هذا المنبر أسماء صناع عدة ، منهم سليمان بن معالي . ويعرف الناس في الوقت الحاضر جريمة احراق هذه التحفة تحت بصر الصهاينة وسمعهم وبايعازهم الخفي .

على أنه من المنابر الهامة في القرن التاسع الهجري (١٥ م) منبر المدرسة الفخرية بالقاهرة ، (صفة المدرسة نسبة الى الأمير فخر الدين عبد الغني الأرمني الأصل) ، ومنبر مسجد المؤيد شيخ ، ومنبر المدرسة الباسطية (النسبة الى القاضي عبد الباسط) ومنبر مدرسة الأشرف برسباي ، ومنبر مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية ومنبر مسجد سلطان شاه (الاضافة الى الأمير سلطان شاه بن قرا ، وهو المنبر الذي أمر بعمله السلطان قايتباي بعد سنة ٨٨٠ هـ (١٤٧٥) حين جدد بناء هذا المسجد ووسعه . وقد تسرب هذا المنبر الى المتحف البريطاني حيث يرى هناك حتى اليوم ، ومنبر مدرسة أبي بكر مزهر (المزهرية) ، ومنبر مدرسة قجماس الاسحاقي .

وأقبل الصناع في هذا العصر على صناعة صناديق من الخشب لحفظ المصحف الشريف كانت تصفح بالنحاس وتزين بالكتابات والنقوش والفروع النباتية المكففة بالفضة والذهب (ص ٥٥٩) .

وبلغت صناعة التحف الزجاجية الاسلامية أوجها في الشام ومصر فيما بين القرنين السادس والتاسع للهجرة (١٢ - ١٥ م) برعاية السلاطين الأيوبيين والمماليك . وكان فخر هذه الصناعة تزيين التحف بالزخارف المذهبة والمموهة بالميناء (ص ٥٥٩) . وأبدع ما وصل اليه صناع الزجاج المسلمون يتجلى في المشكاوات المموهة بالميناء والمشكاوات هي أغشية مصابيح لضاءة المساجد والقصور والأبهاء . وبعض المشكاوات ذو ثروة زخرفية عجيبة تتجلى في الرسوم النباتية التي تغطي السطح كله أو جزءاً كبيراً منه . وقد تكون الزخرفة كتابات معظمها آيات قرآنية كريمة أو عبارات تاريخية أو دعائية مكتوبة بخط النسخ المملوكي . ومن أمثلتها « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاج كإنها كوكب دري يُوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء » .

ومن المعروف أن المسلمين افتتنوا افتتاناً كبيراً بحروف الأبجدية العربية وافتنوا افتناناً بارعاً في كتابتها وتنسيقها وخلعوا عليها جمالاً حسياً وروحياً معاً وجعلوا من الخط فناً بديعاً لتزيين محاريب المساجد والأسلحة والأواني والسجاد والمصاحف ودواوين الشعراء والقناديل ومشكاوات المساجد .

كذلك استعمل الزجاج على يد المسلمين ولا سيما في الشام ومصر فيما يسمونه القماري والشمسيات . وهي نوافذ صغيرة من الجص المفرغ تسد فتحاته بزجاج ملون وتزين هذه الفتحات زخارف اسلامية من فروع نباتية أو رسوم خطية أو كتابات والمقصود غالباً لهذه النوافذ تخفيف حدة الضوء .

وغدا الاقبال على صناعة التحف المعدنية عظيماً في عصر المماليك . وبقي من هذا العصر أبواب وشماعد وكراسي وصناديق ومقلمات وأنية وغير ذلك مما استعمل فيه مختلف الأساليب الفنية في صناعة المعادن من حفر وتكفيت وتخريم (ص ٥٥١) وازدهرت صناعة التكفيت وهي التطعيم بالفضة والذهب . وقامت في البداية على أيدي فنانيين من الموصل نزحوا الى حلب ودمشق والقاهرة ثم نبغ فيها صناع من المصريين أنفسهم ثم انتقلت هذه الصناعة وغيرها الى أوربة .

وفي خطط المقريري وصف دقيق وشائق لسوق الكفتيين الى جانب الأسواق الأخرى ولأصناف السلع المكفّنة التي لا تكاد تخلو دار بالقاهرة من عدد لا بأس به منها ولا سيما النحاسية . وكذلك كانت الأواني والأسيرة والتحف المكفّنة الثمينة ترافق جهاز العروس في زفافها ولا سيما اذا كانت من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب وأماثل التجار .

في هذا العصر الثري بالمال الزاخر بالعلماء المضطرب بالأحداث وبين زحمة العلماء في كل فن وعلم ولد ونشأ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . كان أبوه فقيهاً على مذهب الشافعي ، بارعاً في الأصول والكلام والنحو والبلاغة . درس الفقه بالجامع الطولوني . وتوفي عام ٨٥٥ هـ وسن ابنه إذ ذاك خمس سنين وسبعة أشهر . فأشرف على تربيته وتعليمه صديق لأبيه صوفي . وأولع هذا الفتى اليتيم بطلب العلم فأخذ على نحو مئة وخمسين شيخاً في مختلف العلوم وأكب على البحث والتنقيب في بطون الكتب حتى صار نابغة العصر وشغف بالتأليف

والجمع والاختصار حتى غدا أغزر علماء عصره إنتاجاً . قال عنه تلميذه المؤرخ ابن إياس في حوادث ٩١١ هـ : « كان عالماً فاضلاً بارعاً في الحديث الشريف وغير ذلك من العلوم . وكان كثير الاطلاع ، نادرة في عصره ، بقية السلف وعمدة الخلف . بلغت عدة مصنفاته نحواً من ستمائة تأليف وكان في درجة المجتهدين في العلم والعمل . »

ولعله من الأفضل أن نترك الآن للسيوطي نفسه أن يحدثنا عن سيرة حياته العلمية الفائقة إذ يرويها في كتابه «حسن المحاضرة» .

* * *

ترجمة مؤلف هذا الكتاب عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي .

وانما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداءً بالمحدثين قبلي ، فقلّ أن ألّف أحد منهم تاريخاً الا وذكر ترجمته فيه ؛ ومن وقع له ذلك الامام عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور ، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ، ولسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة ، والحافظ تقي الدين الفارسي في تاريخ مكة ، والحافظ أبو الفضل بن حجر في قضاة مصر ، وأبو شامة في الروضتين ؛ وهو أورعهم وأزهدهم ، فأقول :

أما جدي الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ، ومن مشايخ الطريق ، وسيأتي ذكره في قسم الصوفية ، ومنّ دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياسة ؛ منهم من وليّ الحكم ببلده ، ومنهم منّ وليّ الحسبة بها ، ومنهم منّ كان تاجراً في صحبة الأمير شيخون ، وبنى مدرسة بأسيوط ، ووقف عليها أوقافاً ، ومنهم منّ كان متمولاً ، ولا أعرف منهم من خدم العلم حق الخدمة الا والدي ، وسيأتي ذكره في قسم الفقهاء الشافعية .

وأما نسبتنا بالخضيري ، فلا أعلم ما تكون اليه هذه النسبة الا الخضرية ، محلّة ببغداد ؛ وقد حدثني من أثق به ، أنه سمع والدي رحمه الله تعالى يذكر أن

جده الأعلى كان أعجماً أو من الشرق ؛ فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة ،
وكان مولدي بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة •

وحملت في حياة أبي الشيخ محمد المجدوب ، رجل كان من كبار الأولياء
بجوار المشهد النفيسي ، فبرك عليّ ، ونشأت يتيماً ، فحفظت القرآن ولي دون
ثمانين سنين ثم حفظت العمدة ، ومنهاج الفقه والأصول ، وألفية ابن مالك ؛
وشرعت في الاشتغال بالعلم ، من مستهل سنة أربع وستين ، فأخذت الفقه والنحو
عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن العلامة فرضي زمانه الشيخ
شهاب الدين الشارح مساحي الذي كان يقال إنه بلغ السن العالية وجاز المائة
بكثير ، والله أعلم بذلك ؛ قرأت عليه في شرحه على المجموع ، وأُجِزت بتدريس
العربية في مستهل سنة ست وستين •

وقد ألفت في هذه السنة ، فكان أول شيء ألفت شرح الاستعاذة والبسملة ،
وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني ، فكتب عليه تقريظاً ،
ولازمته في الفقه إلى أن مات ؛ فلازمت ولده ، فقرأت عليه من أول التدريب
لوالده إلى الوكالة وسمعت عليه من أول الحاوي الصغير إلى العدد ، ومن أول
المنهاج إلى الزكاة ، ومن أول التنبيه إلى قريب من باب الزكاة ، وقطعة من الروضة
من باب القضاء ، وقطعة من تكملة شرح المنهاج للزركشي ؛ ومن إحياء الموات إلى
الوصايا أو نحوها • وأجازني بالتدريس والافتاء من سنة ست وسبعين ، وحضر
تصديري •

فلما توفي سنة ثمان وسبعين لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوي • فقرأت
عليه قطعة من المنهاج ، وسمعته عليه في التقسيم المجالس فالتفتني ، وسمعت
دروساً من شرح البهجة ، ومن حاشية عليها ومن تفسير البيضاوي •

ولزمت في الحديث والعربية شيخنا الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي ،
فواظبته أربع سنين ، وكتب لي تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع
الجوامع في العربية تأليفي ، وشهد لي غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه ، ورجع
إلى قبلي مجرداً في حديث ؛ فانه أورد في حاشيته على الشفاء حديث أبي الجمرات في
الأسرا ؛ وعزاه إلى تخريج ابن ماجه ، فاحتجت إلى إirاده بسنده ، فكشفت

ابن ماجه في مظنته ، فلم أجده ، فمررت على الكتاب كله ، فلم أجده ، فاتهمت نظري ، فمررت مرة ثانية فلم أجده ، فعدت ثالثة فلم أجده ؛ ورأيت في معجم الصحابة لابن قانع ، فجئت الى الشيخ وأخبرته ، فبمجرد ما سمع مني ذلك أخذ نسخته ، وأخذ القلم فضرب على لفظ ابن ماجه ، وألحق ابن قانع في الحاشية ؛ فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي ، واحتقاري في نفسي ، فقلت : ألا تصبرون ، لعلكم تراجعون ! فقال : لا ، انما قلدت في قلبي ابن ماجه البرهان الحلبي . ولم أنفك عن الشيخ الى أن مات .

ولزمت شيخنا العلامة أستاذ الوجود محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة ؛ فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول والعربية والمعاني وغير ذلك ؛ وكتب لي اجازة عظيمة .

وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفي دروساً عديدة في الكشف والتوضيح وحاشيته عليه ، وتلخيص المفتاح ، والمضد .

وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتي الى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه .

وسافرت بحمد الله تعالى الى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، ولما حجت شربت من ماء زمزم ، لأمر ؛ منها أن أصل في الفقه الى الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث الى رتبة الحافظ ابن حجر .

وأفتيت من مستهل سنة احدى وسبعين .

وعقدت املاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين .

ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ؛ على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذي أعتقده أن الذي وصلت اليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل اليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي ؛ فضلاً عما هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ؛ بل شيخي فيه أوسع نظراً وأطول باعاً ؛ ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الانشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم

أخذها عن شيخ ، ودونها الطب ، وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليّ وأبعده عن ذهني ؛ وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله .

وقد كملت عندي الآن آلاف الاجتهاد بحمد الله تعالى ؛ أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً ؛ وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر ، وقد أرف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر ! ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله لا بحولي ولا بقوتي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وقد كنت في مبادئ الطلب قرأتُ شيئاً في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي . وسمعتُ أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوّضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم .

وأما مشايخي في الرواية سماعاً وإجازة فكثير ؛ أوردتهم في المعجم الذي جمعتهم فيه ، وعِدَّتْهم نحو مائة وخمسين ؛ ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهم وهو قراءة الدراية .

وهذه أسماء مصنفاتي لتستفاد :

فن التفسير وتعلقاته والقراءات : الاتقان في علوم القرآن ، الدر المنثور في التفسير المأثور . ترجمان القرآن في التفسير . المسند ، أسرار التنزيل يسمى قطف الأزهار في كشف الأسرار ، لباب النقول في أسباب النزول ، مفحمات الأقران في مبهمات القرآن ، المذهب فيما وقع في القرآن من المعرّب ، الاكليل في استنباط التنزيل ، تكملة تفسير الشيخ جلال الدين المحلي ، التحرير في علوم التفسير ، حاشية على تفسير البيضاوي ، تناسق الدرر في تناسب السور ، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع ، مجمع البحرين ومطلع البدرين في التفسير ، مفاتيح الغيب في التفسير ، الأزهار الفاتحة على الفاتحة ، شرح الاستعانة والبسمة ، الكلام على أول الفتح ، وهو تصدير ألقيته لما باشرتُ التدريس بجامع شيخون بحضرة شيخنا البلقيني ، شرح الشاطبية ، الألفية في القراءات العشر ، خمائل الزهر في فضائل السور ، فتح الجليل للعبد الذليل في الأنواع البديعية

المستخرجة من قوله تعالى : (الله وليّ الذين آمنوا ٠٠٠) الآية ، وعدتها مائة وعشرون نوعاً ، القول الفصيح في تعيين الذبيح ، اليد البسطى في الصلاة الوسطى ، معترك الأقران في مشترك القرآن .

فن الحديث وتعلقاته : كشف المغطى في شرح الموطأ ، اسعاف المبطل برجان الموطأ ، التوشيح على الجامع الصحيح ، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج ، مرقاة الصعود الى سنن أبي داود ، شرح ابن ماجه ، تدريب الراوي في شرح تقريب النووي ، شرح ألفية العراقي ، الألفية وتسمى نظم الدرر في علم الأثر وشرحها يسمى قطر الدرر ، التهذيب في الزوائد على التقريب ، عين الاصابة في معرفة الصحابة ، كشف التلبيس عن قلب أهل التدليس ، توضيح المدرك في تصحيح المستدرک ، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، النكت البديعات على الموضوعات ، الذيل على القول المسدد ، القول الحسن في الذب عن السنن ، لب اللباب في تحرير الأنساب ، تقريب العزيب ، المدرج الى المدرج ، تذكرة المؤتسي بمن حدث ونسي ، تحفة النابه بتلخيص المتشابه ، الروض المكلل والورد الممل في المصطلح ، منتهى الآمال في شرح حديث انما الأعمال ، المعجزات والخصائص النبوية ، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور ، البدور السافرة عن أمور الآخرة ، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، فضل موت الأولاد ، خصائص يوم الجمعة ، منهاج السنة ، ومفتاح الجنة ، تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش ، بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال ، مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة ، مطلع البدرين فيمن يوتى أجرين ، سهام الاصابة في الدعوات المجابة ، الكلم الطيب ، القول المختار في المأثور من الدعوات والأذكار ، أذكار الأذكار ، الطب النبوي ، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ، الفوائد الكامنة في ايمان السيدة آمنة ، ويسمى أيضاً التعظيم والمنّة في أن أبوي النبي ﷺ في الجنة ، المسلسلات الكبرى ، جياذ المسلسلات ، أبواب السعادة في أسباب الشهادة ، أخبار الملائكة ، الثغور الباسمة في مناقب السيدة آمنة ، منهاج الصفا في تخريج أحاديث الشفا ، الأساس في مناقب بني العباس ، درّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة ، زوائد شعب الإيمان للبيهقي ، لم الأطراف وضم الأتراف ، اطراف الأشراف بالاشراف على الأطراف ، جامع المسانيد ، الفوائد المتكاثرة في

الأخبار المتواترة ، الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة ، تخريج أحاديث الدرة الفاخرة ، تخريج أحاديث الكفاية يسمى تجربة العناية ، الحصر والاشاعة لأشراط الساعة ، الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ، زوائد الرجال على تهذيب الكمال ، الدر المنظم في الاسم المعظم ، جزء في الصلاة على النبي ﷺ ، مَنْ عاش من الصحابة مائة وعشرين ، جزء في أسماء المدلسين ، اللمع في أسماء مَنْ وضع ، الأربعون المتباينة ، درر البحار في الأحاديث القصار ، الرياضة الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة ، المرقاة العلية في شرح الأسماء النبوية ، الآية الكبرى في شرح قصة الاسرا ، أربعون حديثاً من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر ، فهرست المرويّات ، بغية الرائد في الذيل على مجمع الزوائد ، أزهار الآكام في أخبار الأحكام ، الهبة السنّية في الهيئة السنّية ، تخريج أحاديث شرح العقائد ، فضل الجلد ، الكلام على حديث ابن عباس : « احفظ الله يحفظك » هو تصدير ألقبته لما وليت درس الحديث بالشيخونية ، أربعون حديثاً في فضل الجهاد ، أربعون حديثاً في رفع اليدين في الدعاء ، التعريف بأداب التأليف ، العشاريات ، القول الأشبه في حديث : « مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه » ، كشف النقاب عن الألقاب ، نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير ، من وافقت كنيته كنيته زوجه من الصحابة ، ذم زيارة الأمراء ، زوائد نواذر الأصول للحكيم الترمذي ، تخريج أحاديث الصغاح يسمى فلق الصباح ، ذم المكس ، آداب الملوك .

فن الفقه وتعلقاته : الأزهار الفضة في حواشي الروضة ، الحواشي الصغرى ، مختصر الروضة يسمى القنية ، مختصر التنبيه يسمى الوافي ، شرح التنبيه ، الأشباه والنظائر ، اللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق ، نظم الروضة يسمى الخلاصة ، شرحه يسمى رفع الخصاصة ، الورقات المقدمة ، شرح الروض ، حاشية على القطعة للاسنوي ، العذب السلسل في تصحيح الخلاف المرسل ، جمع الجوامع ، ينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع ، مختصر الخادم يسمى تحصين الخادم ، تشنيف الأسماع بمسائل الاجماع ، شرح التدريب ، الكافي ، زوائد المذهب على الوافي ، الجامع في الفرائض ، شرح الرحبية في الفرائض ، مختصر الأحكام السلطانية للماوردي .

الأجزاء المفردة في مسائل مخصوصة على ترتيب الأبواب : الظفر بقلم الظفر ،

الاقتناص في مسألة التماس ، المستطرفة في أحكام دخول الحشفة ، السلالة في تحقيق المقر والاستحالة ، الروض الأريض في طهر الحيض ، بذل العسجد لسؤال المسجد ، الجواب الحزم عن حديث التكبير جزم ، القذاذة في تحقيق محل الاستعاذة ، ميزان المعدلة في شأن البسملة ، جزء في صلاة الضحى ، المصابيح في صلاة التراويح ، بسط الكف في إتمام الصف ، اللمعة في تحقيق الركعة لادراك الجمعة ، وصول الأماني بأصول التهاني ، بلغة المحتاج في مناسك الحاج ، السلاف في التفصيل بين الصلاة والطواف ، شدّ الأثواب في سدّ الأبواب في المسجد النبوي ، قطع المجادلة عند تغيير المعاملة ، إزالة الوهن عن مسألة الرهن ، بذل الهمة في طلب براءة الذمة ، الانصاف في تمييز الأوقاف ، أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب ، الزهر الباسم فيما يزوج فيه الحاكم ، القول المضي في الحنث في المضي ، القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق ، فصل الكلام في ذم الكلام ، جزيل المواهب في اختلاف المذاهب ، تقرير الاسناد في تيسير الاجتهاد ، رفع منار الدين وهدم بناء المفسدين ، تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء ، ذم القضاء ، فضل الكلام في حكم السلام ، نتيجة الفكر في الجهر بالذكر ، طي اللسان عن ذم الطيلسان ، تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك ، أدب الفتيا ، إقام الحجر لمن زكّى سباب أبي بكر وعمر ، الجواب الحاتم عن سؤال الخاتم ، الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة ، فتح المغالِق من أنت طالق ، فصل الخطاب في قتل الكلاب ، سيف النظار في الفرق بين الثبوت والتكرار .

فن العربية وتعلقاته : شرح ألفية ابن مالك يسمى البهجة المضيّة في شرح الألفية ، الفريدة في النحو والتصريف والخط ، النكت على الألفية الكافية والشافية والشذور والنزهة ، الفتح القريب على مغني اللبيب ، شرح شواهد المغني ، جمع الجوامع ، شرحه يسمى همع الهوامع ، شرح الملحّة ، مختصر الملحّة ، مختصر الألفية ودقائقها ، الأخبار المروية في سبب وضع العربية ، المصاعد العليّة في القواعد النحوية ، الاقتراح في أصول النحو وجدله ، رفع السنّة في نصب الزنة ، الشمعة المضيّة ، شرح كافية ابن مالك ، درّ التاج في إعراب مشكل المنهاج ، مسألة ضربي زيداً قائماً ، السلسلة الموشحة ، الشهد ، شذا العرف في إثبات المعنى للعرف ، التوشيح على التوضيح ، السيف الضيقيل في حواشي ابن عقيل ، حاشية

على شرح الشذور ، شرح القصيدة الكافية في التصريف ، قطر النداء في ورود
الهمزة للندا ، شرح تصريف العزّي ، شرح ضروري التصريف لابن مالك ،
تعريف الأعجم بحروف المعجم ، نكت على شرح الشواهد للعيني ، فجر الشمذ في
إعراب أكمل الحمد ، الزند الوريّ في الجواب عن السؤال السكندري .

فن الأصول والبيان والتصوف : شرح لمعة الاشراف في الاشتقاق ، الكوكب
الساطع في نظم الجوامع ، شرحه ، شرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد ، نكت على
التلخيص يسمى الافصاح ، عقود الجمان في المعاني والبيان ، شرحه ، شرح أبيات
تلخيص المفتاح ، مختصره ، نكت على حاشية المطول لابن الفنري رحمه الله تعالى ،
حاشية على المختصر ، البديعية ، شرحها ، تأييد الحقيقة العلية وتشديد الطريقة
الشاذلية ، تشييد الأركان في ليس في الامكان أبدع مما كان ، درج المعالي في
نصرة الغزالي على المنكر المتغالي ، الخبر الدالّ على وجود القطب والأوتاد
والنجباء والأبدال ، مختصر الاحياء ، المعاني الدقيقة في ادراك الحقيقة ، النقاية
في أربعة عشر علماً ، شرحها ، شوارذ الفوائد ، قلائد الفرائد ، نظم التذكرة ،
ويسمى الفلك المشحون . الجمع والتفريق في الأنواع البديعية .

فن التاريخ والأدب : تاريخ الصحابة وقد مر ذكره ، طبقات الحفاظ :
طبقات النحاة : الكبرى والوسطى والصغرى ، طبقات المفسرين ، طبقات الأصوليين ،
طبقات الكتاب ، حلية الأولياء ، طبقات شعراء العرب ، تاريخ الخلفاء ، تاريخ
مصر هذا ، تاريخ سيوط معجم شيوخه الكبير يسمى حاطب ليل وجارف سيل ،
المعجم الصغير يسمى المنتقى : ترجمة النووي ، ترجمة البلقيني ، الملتقط من
الدرر الكامنة ، تاريخ العمر وهو ذيل على إنباء الفهر ، رفع الباس عن بني
العباس ، النفحة المسكية والتحفة المكية ، على نمط عنوان الشرف ، درر الكلم
وغرر الحكم ، ديوان خطب ، ديوان شعر ، المقامات ، الرحلة الفيومية ، الرحلة
المكية ، الرحلة الدمياطية ، الرسائل الى معرفة الأوائل ، مختصر معجم البلدان ،
ياقوت الشماريخ في علم التاريخ ، الجمانة ، رسالة في تفسير ألفاظ متداولة ، مقاطع
الحجاز ، نور الحديقة من نظم القول ، المجمل في الرد على المهمل ، المنى في الكنى ،
فضل الشتاء ، مختصر تهذيب الأسماء للنووي ، الأجوبة الزكية عن الألفاظ
السبكية ، رفع شأن الحبشان ، أحاسن الأقباس في محاسن الاقتباس ، تحفة

المذاكر في المنتقى من تاريخ ابن عساكر ، شرح بانت سعاد ، تحفة الظرفاء بأسماء
الخلفاء ، قصيدة رائية ، مختصر شفاء الغليل في ذم صاحب والخليل .

★ ★ ★

من مزايا السيوطي سعة معرفته وتبحره في علوم شتى أشار إليها في سيرته
تلك تحدثاً بنعمة الله عليه لا افتخاراً . وقد ألف في علوم كثيرة وذكر من مؤلفاته
أن عددها بلغ ثلثمائة . ولكنه ثابر على التأليف بعد كتاب حسن المحاضرة .
وروى تلميذه أن مؤلفاته بلغت نحو ستمائة . وهذا العدد في الحالين ضخيم يدل
على غزارة مادته وامتداد آفاقه وسعة مداه وإن كان بين هذه المؤلفات عدد
لا بأس من الرسائل الصغيرة التي هي بمنزلة بحوث عارضة .

وبعض مؤلفاته شروح أو مختصرات لمؤلفات لغيره ممن تقدمه أو مؤلفات له
كما جرى على ذلك العلماء في عصره أو العصر الذي تقدمه . وقد غدت مؤلفاته
كلها مراجع مهمة في العصور التالية حتى العصر الحاضر . وحسبه فخراً تأليفه
المزهر والاتقان والأشباه والنظائر وبغية الوعاة وحسن المحاضرة والاقتراح في
أصول النحو . ولم يذكر السيوطي المزهر بين مؤلفاته . وهذا يدل على أنه
ألفه بعد حسن المحاضرة .

هذا ومن المناسب أن نذكر بأن السيوطي في تلخيصه لبعض الكتب الهامة في
التراث لم يقتصر على التلخيص . فقد ألف السيوطي كتاب « طبقات الحفاظ »
مثلاً من « طبقات الحفاظ » للحافظ الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ . فلم يكتف
بما أورده الذهبي في طبقاته بل كان يختار ويلخص ويؤلف ويزيد بعض النقول ثم
يذيل عليها بالحفاظ الذين تلوا عصر الذهبي إلى طبقة الحافظ ابن حجر .
ومن مزايا السيوطي في تأليفه أن يورد في مقدمات بعض كتبه مصادره من الكتب
التي اعتمدها ويذكر أسماء مؤلفيها كما في مقدمات كتاب « بغية الوعاة في طبقات
اللغويين والنحاة » وكتاب « الاتقان في علوم القرآن » وكتاب « حسن المحاضرة في
تاريخ مصر والقاهرة » . كذلك يضيف ما نقله سماعاً عن علماء عصره من
الشيوخ والأقران وما وقع له أحياناً من المشاهدة والتثبت .

ومن مزاياه أنه ألف في موضوعات مبتكرة قل أن تخطر على البال منها كتابه
فيمن عاش من الصحابة مئة وعشرين سنة . وهذا موضوع يهم بحوث
« الديمغرافية » أي علم السكان الحديث في معرفة مدى تعمير المعمرين .

وكتاب « الدراري في أبناء السراري » به أسماء أبناء الخلفاء المولودين من الجواري ، وغير ذلك .

ومن مزايا السيوطي تواضعه مع علمه الجمّ الواسع وتأليفه الكثيرة التي قلّ أن يؤلف بعدها المؤلفون . ومع ذلك يعترف أنه لم ينبغ في فن الانشاء والترسل بعد هذا العدد الضخم من المؤلفات .

وعلى الرغم من هذه المزايا قيض له من علماء عصره المشهورين والمؤرخين المدققين من يبحث عن هفواته . فقد حمل السخاوي عليه في كتابه « الضوء اللامع » ومن المعروف أن السخاوي مع اشاراته الدقيقة وتحرياته الصائبة شديد التجريح لمن ترجم لهم في كتابه ولا سيما معاصروه وشيوخه . ومن الذين لم يسلموا من وخزات قلمه أستاذه المقرئزي .

وقد عمد السيوطي فردّ على شمس الدين السخاوي بمقامة سماها « الكاوي على تاريخ السخاوي » . قال في أولها :

« ما ترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوىء وثلب الأعراض ، وفوّق فيه سهاماً على قدر أغراضه والأعراض هي الأغراض ، جعل لحم المسلمين من جملة طعامه وادامه ، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير . . . وامتد حتى الى العلماء الأعلام وقضاة القضاة ومشايخ الاسلام . » الخ .

يذكر ابن اياس أنه في رجب شاع بين الناس أن الشيخ جلال الدين السيوطي أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة لأن الاجماع منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية . وأما ذكر من أن ذلك يجوز في مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه فباطل ، وليس له صحة في كتب الشافعية قاطبة .

ونحن نعجب بموقف الجلال وفهمه لروح الدين الحنيف . فمنع البناء على شطوط الأنهار الجارية دفع لتلوثها .

كذلك ذكر ابن اياس : « ولما دخلت سنة ٨٩٩ هـ صعد القضاة يهنئون السلطان قايتباي بالقلعة بالعام الجديد . وصعد أيضاً الشيخ جلال الدين

الأسيوطي . فلما جلس سأل السُلطان عن أي سنة سنّها رسول الله ﷺ ولم يفعلها . فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك بشيء مع غزارة علمه وقوة اطلاعه ، وكان السُلطان عنده كتاب يسمى « حيرة الفقهاء » ... ثم أجاب الشيخ جلال الدين بعد ذلك بجواب حسن كاف في هذه المسألة بأنه قصد بذلك الأذان ، فانه سنّه ولم يفعله ... وعمل في هذه المسألة كراساً مطولاً .»

هذا ونلاحظ طموح السيوطي منذ صباه ولفت الأنظار نحوه . كتب السخاوي في كتابه «الضوء اللامع» حين ترجم للسيوطي أن هذا الفتى «ترقى حتى قرأ في بعض المتون الفقهية على العَلَمِ البلقيني وحضر عند الشرف المناوي يسيراً جداً ولمح له بالأدب حيث قال له وقد تألم من جلوسه فوق ملاّ علي : كنا ونحن صفار لا نجلس الا خلف الحلقة ، في كلمات من هذا النمط وحينئذ انقطع ...»

ثم نلاحظ ما ذكره تلميذ السيوطي محمد بن أحمد بن اياس في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » في سياق حوادث ٩٠٢ هـ من « أن الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطي بوظيفة لم يسمع بمثلها قط وهو أنه جعله على جميع القضاة قاضياً كبيراً يولّي منهم من يشاء ويعزل منهم من يشاء مطلقاً في سائر ممالك الاسلام . وهذه الوظيفة لم يلها قط سوى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في دولة بني أيوب . فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم واستخفوا عقل الخليفة في ذلك ، وقالوا : ليس للخليفة مع وجود السُلطان حل ولا ربط ولا ولاية ولا عزل ولكن الخليفة استخف بالسُلطان لكونه صغيراً . فلما قامت الدائرة والألسنة على الخليفة رجع عن ذلك وقال : ايش كنت أنا . الشيخ جلال الدين هو الذي حسن لي ذلك ، وقال لي : هذه كانت وظيفة قديمة ، وكان الخلفاء يولونها من يختارونه من العلماء ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك وبعث فأخذ العهد الذي كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطي وكادت أن تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ووقعت أمور يطول شرحها ثم سكن الحال بعد مدة » .

كان السيوطي صديقاً للخليفة المتوكل على الله وكان السُلطان اذ ذاك محمد بن قايتباي . وقد اشترك الخليفة في السنة نفسها مع القضاة الأربعة في خلع السُلطان هذا ومبايعة «قانسوة خمسمائة» بالسلطنة . ولكن لم يلبث هذا الا ثلاثة أيام ثم غلب ورجع الملك الى صاحبه وهو الناصر محمد بن قايتباي . فعاد الخليفة

نفسه وبايعه السيوطي بالسلطنة. وقد رغب الخليفة في عيد الفطر من السنة نفسها أن يهنئ السلطان بالعيد . فلم يقابله السلطان وبعث اليه بن يشكره ويصرفه . وقد مرض هذا الخليفة في أواخر عام ٩٠٢ وتوفي آخر المحرم عام ٩٠٣ وله من العمر ٨٤ سنة . وقد اشتهر بدمائة الخلق والاشتغال بالعلم والأدب . وكان السيوطي قد ألّف له كتابيه في تاريخ بني العباس . الأول هو « كتاب الأساس في فضل بني العباس » والثاني « رفع الباس عن بني العباس » .

هذا وربما كان السيوطي يرنو الى منصب القضاء زيادة على تدريسه في بعض الجوامع . ولكنه لم يصل الى ذلك المنصب مع تقدمه في الفقه وذيوع شهرته بين أترابه ورجال جيله . وكان منصب قاضي قضاة الشافعية قد تبوأه في أيامه الشيخ زكريا الأنصاري مدة طويلة وبكفاية عالية . وقد تكون حادثة السيوطي مع الخليفة المتوكل هي التي حملته في أواخر عمره على اعتزال الناس وترك وظائفه من تدريس وإفتاء فتجرد للتأليف وشرع في تحرير باقي مؤلفاته وألف كتابه « التنفيس في الاعتذار من ترك الافتاء والتدريس » . وأقام في روضة المقياس . فلم يتحول عنها الى أن وافاه أجله .

كان السيوطي ذا مكانة مرموقة في عصره وكان الأمراء والوزراء وغالبية الملوك يحترمونه ويقدرّون فضله . ويعرضون عليه هباتهم فيردها . قال صاحب « السنا الباهر بتكميل النور السافر » : « ولما مات لم يتعرض أحد في تركته ، مع أن الزمن كان زمن جور . وقال السلطان الغوري : لم يقبل الشيخ منا شيئاً في حياته فلا نتعرض في تركته » .

* * *

شملت دولة المماليك مصر وسورية وبسطت نفوذها بدرجات متفاوتة على كثير من الأقطار المجاورة مثل شبه الجزيرة العربية وبرقة وبلاد النوبة وأطراف آسيا الصغرى .

وكان في عهدها بنو حفص في تونس ، وبنو زيان في الجزائر . وبنو مرين ثم بنو وطاس في المغرب الأقصى .

أما الأندلس فقد استطاعت ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك أرغون اللذان كانا قد تزوجا الاستيلاء على درة هذه البلاد غرناطة في ٢ شهر ربيع الأول

٨٩٧ - ٢ كانون الثاني ١٤٩٢ فكان ذلك أدهى الكوارث على المسلمين . وقد اتصف حكمهما بتأسيس محاكم التفتيش ومنحها سلطة واسعة وإطلاق يدها إطلاقاً كلياً مما أكسب اسبانيا زعامة الاضطهاد الديني والتعصب الأعمى في أقصى مظاهرها ، كذلك اتصف بطرد المسلمين من بلادهما بعد ارساء أركان حضارة امتد أمداً نحو ثمانية قرون وبطرد اليهود الذين كان يحميهم المسلمون في ظلال تلك الحضارة .

ومع ذلك فقد أرسل الملكان الاسبانيان مستكشفاً من أهل جنوة في رحلة كانت أعظم الرحلات في التاريخ اذ أبحرت ثلاث سفن مع كريستوفر كولمبوس حاملة مئة وعشرين بحاراً في ٣ آب ١٤٩٢ وباحثة عن بلاد الهند ومتجهة غرباً لا شرقاً وفي نهاية الاسبوع العاشر وقع نظرهم على الأرض . ولكنها لم تكن أرض الهند كما ظلّ يعتقد كولمبوس ولكنها أرض العالم الجديد .

أما في الشرق فقد عاصر المماليك بني رسول ثم بني طاهر في اليمن وفي آسيا الصغرى كانت سلاطين بني عثمان تشتد شوكتهم ويقوى سلطانهم وأهم الأحداث التي جرت في زمن المماليك افتتاح السلطان محمد الثاني القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م . وهلك آخر أباطرة الروم بين أكداش القتلى وانتهت الامبراطورية البيزنطية . وقد استمر السلطان العثماني يتوغل في فتوحه وتمكن قبل موته في عام ٨٨٦ هـ - ١٤٨١ من إخضاع شبه جزيرة البلقان كلها في جنوب نهر الدانوب وفرعه الساف فضلاً عن بلاد الأفلاخ (رومانيا) في شمال هذا النهر العظيم .

وفي عهد سليم الأول ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م - ٩٢٦ / ١٥٢٠ الذي دام حكمه نحو ثمانين سنوات هزم هذا السلطان شاه ايران اسماعيل من الأسرة الصفوية وضم كردستان وديار بكر اليه . ذكرنا آنفاً حربه مع السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، واستيلاءه على سورية ومصر وقضائه على دولة المماليك الجراكسة . وقد بسط سلطته على مكة المشرفة والمدينة المنورة وأتى بالخليفة العباسي في دولة المماليك وهو المتوكل على الله الثالث الى استانبول وأخذ منه الخلافة .

وفي أواخر دولة المماليك أسس الشاه اسماعيل دولة الصفويين في ايران ٩٠٧ هـ / ١٥٠٢ م وجعل عاصمتها تبريز ونسبتهم الى الشيخ صفى الدين

الأردبيلي . ويقال انهم من الأسرة الحسينية ينحدرون من الامام السابع موسى الكاظم ، وقد استطاع الشاه اسماعيل أن يستولي على ايران كلها وأن يقضي على الدول الصغيرة المتفرقة من حوله واجتازت جيوشه خراسان وجعل ملكه يمتد من نهر جيحون الى خليج البصرة ، ومن أفغانستان الى الفرات . وقد أشرنا آنفاً الى الحرب التي وقعت بينه وبين السلطان سليم الأول العثماني والى ربح العثمانيين لهذه الحرب .

وفي الهند اعتلى بهلول لودي الأفغاني عرش دهلي في عام ١٤٥١/٨٥٥ وأسس دولة صغيرة استمرت بولده وحفيده حتى عام ١٥٢٦/٩٣٢ حين قتل ظهير الدين محمد بابر شاه آخر سلاطينها .

وقد تأسست في الهند أيضاً دول مختلفة في شتى الولايات ألحقها بعد حين أكبر شاه بامبراطورية الهند المغولية

هذا وان فتح محمد الثاني للقسطنطينية وهو عام ١٤٥٣ يعدّه المؤرخون نهاية للعصر الوسيط وبداية للعصور الحديثة . وذلك أن النهضة الأوروبية قد بدأت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين واستمرت في القرن السادس عشر بيقظة الآداب والفنون والعلوم والصناعات من جنوبي أوربة كله مشعة في مختلف أقطارها شمالاً بعد الاحتكاك بالحضارة العربية الإسلامية واحتذاء الغرب سبل المسلمين في الحياة والتفكير والعلوم والثقافة والصناعة . وقوى هذه النهضة هجرة رجال الأدب والعلم من القسطنطينية بعد فتحها الى إيطاليا . وعلى الرغم من تاريخ نشوء الطباعة الحديثة الغامض فإن أغلبية الباحثين يجرون على أن يوحنا غوتنبرغ من مدينة ماينس في ألمانيا هو صاحب الاختراع في عام ١٤٥٣ فدعم نشوؤها انتشار الثقافة والمعرفة وساند النهضة . وكذلك في عالم الملاحة والتجارة طاف الملاخ البرتغالي فاسكو داغاما (١٤٦٩ ؟ - ١٥٢٤) حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧ في طريقه الى الهند . وهو من الذين تخرجوا في فن الملاحة العربية . مثله في ذلك مثل كريستوفر كولمبوس . ونشأ في أوربة عدد كبير من رجال الإصلاح والعلماء والفلاسفة والفنانين

كانوا نجوم النهضة الأوروبية • وحسبنا هنا أن نشير الى بعضهم ممن عاصر
السيوطي •

ظهر من رجال الاصلاح الديني مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) في ألمانيا ،
وألريخ تسغللي (١٤٨٤ - ١٥٣١) في سويسرة ، وحنا كلفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤)
في فرنسا •

ومن العلماء براسلسوس (١٤٩٣ - ١٥٤١) الكيماوي الطبيب السويسري
الألماني ، وليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) في ايطاليا كان عالماً موسوعياً الى
جانب اهتمامه بالبحث والتصوير ، ونيقولاوس كبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣)
الفلكي البولندي البروسي •

ومن الفلاسفة بونوناتزي (١٤٦٢ - ١٥٢٥) أشهر أساتذة بادوفا في
ايطاليا وجيrolamo كрдانو (١٥٠١ - ١٥٧٦) اشتهر بالفلسفة والطب تخرج
من جامعة بادوفا • وكلاهما تشبعا بالفلسفة الرشدية (نسبة الى ابن رشد) .
كذلك عاش العالم المفكر ايراسموس (١٤٦٦ - ١٥٣٦) الهولندي الذي نشر
أفكار النهضة والاصلاح في شمالي أوروبا •

ويلحق بهم الطبيب الاسباني ميخائيل سرفيتوس (١٥١١ - ١٥٥٣) الذي
اطلع على ترجمة لاتينية لكتاب « شرح تشريح القانون » لابن النفيس وانتحل
كشفه للدورة الدموية •

وغيرهم كثير تشعبت مبادئهم واتجاهاتهم • وكلهم هبت عليهم وعلى
أساتذتهم قبلا نسمة الحضارة الاسلامية رحية منعشة موقظة •

* * *

نلاحظ في خاتمة هذا البحث الأمور الثلاثة الآتية :

أ - أخذ تيمور من بلاد الشام الى عاصمته سمرقند جيلا يكاد يكون كاملا
من العلماء والمتخصصين في شتى الصنائع والفنون • وكذلك فعل العثمانيون بعد
استيلائهم على مصر فأخذوا العلماء وأهل الصنائع فيها الى عاصمتهم الجديدة
استانبول • وأخذ مثل ذينك الجيلين من دولة أو صقع يحكم على الصقع أو الدولة

بالتأخر والجمود حتى يستطيع الشعب أن يرمم نفسه ويلم شعثه ويجبر وهنه
ويداوي جراحه بعد أمد طال أو قصر .

٢ - لقد نهكت غارات التتار والحملات الصليبية جسم الأمة ولكنها كانت
من أسباب الاتصال العميق بين مستويين حيويين وحضارتين متفاوتتين . فأدى ذلك
الى بث المعرفة ونقل الاختصاص وانتشار حرية الفكر والاقبال على العمل وعلى
تحسين الحياة الفردية والاجتماعية في أوربة .

٣ - تبدو لنا الحضارة الاسلامية في ذلك العصر أي في القرنين التاسع والعاشر
الهجريين والخامس عشر والسادس عشر الميلاديين كالخضم المحيط قد صبّت فيه
بعد طول جريان أنهار وروافد كثيرة جلبت مع مياهها المنخضة حمولا طيبة
وغذاءً طافياً ، وكانت الشمس تجنح فوق ذلك المحيط الخضم نحو الغروب
وتتركه يستنير بسنا النجوم .

ومن ذلك البحر اللجي الواسع السحيق الأغوار والمعتلج الأمواج
انبجست ينابيع شتى متدفقة في العلوم والصنائع والاصلاح جرت في أراضٍ
أُنْفٍ متفاوتة في أوربة تحت سنا فجر جديد ثم في ضوء شمس مشرقة ما زالت
ماتعة حتى اليوم ولكنها آلت الى ما آلت اليه من اتجاه مادي صرف وتخبط في
السيطرة والعنصرية . « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (آل عمران ١٤٠) .

ومع ذلك فتبقى المعرفة الرشيدة السديدة فحوى الحياة الانسانية وجوهرها
النافع ونسغها الناجع ونورها الساطع ، وتبقى الحكمة الالهية سيدة التوجيه في
المجتمعات هادية سواء السبيل :

« فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك
يضرب الله الأمثال » . (الرعد ١٧) .

★ ★ ★